

وسائل الإعلام والاتصال وتغذية العنف والعنف المضاد عند/ضد الطفل.

شهرة درسوني
باحثة/ جامعة الجزائر

الملخص بالعربية:

تسعى هذه الورقة البحثية للولوج إلى مشكلة جديرة بالبحث والدراسة والتي تعدّ مخلفة من المخلفات الخطيرة لظاهرة العولمة والمتمثلة في أزمة التقنية وبالتحديد سلبيات وسائل الإعلام و الإتصال على حياة الإنسان، وبالخصوص العنصر الإنساني في بدايات تكوّنه النفسي والتربوي والثقافي والإجتماعي، أي الفرد الناشئ " الطفل "، ولعلّ أخطر تأثير سلبي لها عليه يتجلى في تغذيته وشحنه بالعنف كمرحلة أولى، وتحويله إلى طفل عنيف فتكون تغذية مضاعفة كمرحلة ثانية، لتنتهي المرحلة الأخيرة بممارسة العنف المضاد إتجاهه.

الكلمات المفتاحية:

وسائل الإعلام والاتصال، العنف، العنف المضاد، الطفل.

Abstract:

This research paper seeks to access a problem worthy of research and study , which is one of the serious violations of the phenomenon of globalization, she is represented in the technical crisis and in particular the negative aspects of media and communication on human life, In particular, the human element in the beginnings his psychological, educational, cultural and social training Perhaps the most serious negative impact on him will make him violent in the first stage, and the last step ends with the practice of counter-violence against him.

keywords :

Media and communication, violence, counter-violence, children.

مقدمة:

إذا كان كل عصر تقاس درجة تطوره بمجموعة الاختراعات والإنجازات التي حققت فيه، فإنّ هذا القياس لن يكتمل إلّا إذا تطرّق بالبحث والدراسة لمختلف الجوانب المسكوت عنها لهذه الاختراعات والإنجازات، بعبارة أوضح، التطرّق لكل الآثار والجوانب السلبية المترتبة عنها، هنا فقط يضحي القياس منطقيا وناجعا، وعصرنا اليوم هو عصر التقنية والعقل الأداتي بإمتياز، فكل العلوم تستند إلى التقنية في التنظير والتطبيق، وكل المجالات والميادين الحياتية تترأسها التقنية فكرا وسلوكا، يعني أنّ التقنية إكتسحت حياتنا المعاصرة بقوة لدرجة أنّ تخليّنا عنها أصبح مستحيلا، ودليل ذلك أنّها لا تفارقنا إلّا في ساعات النوم لا غير.

والملاحظ أنّ التركيز على إيجابيات التقنية وعلى وجه التحديد "وسائل الإعلام والاتصال" أمارت اللثام عن خطرها وإن لم يكن على المستوى القريب المدى فالبعيد المدى، كيف ذلك ؟ من خلال تأثيراتها السلبية على حياة الإنسان وبالتحديد على حياة الجيل الناشئ "الطفل"، ولعلّ أخطر تأثير سلبي لها يتجلى في تغذية وشحن الطفل بالعنف من جهة، وتحويله من الأمور والظواهر البديهية والعادية له وللكبار من جهة ثانية، فتكون تغذية مضاعفة، وما يؤكّد هذا هو أنّنا "نلاحظ في الطبعة الأخيرة لموسوعة العلوم الإجتماعية كيف أنّ مصطلح العنف، لا يحظى بأيّ مقال خاص به، ونرى هنا إلى أيّ درجة يعتبر العنف والتعسف المرتبط به أمرين عاديين، بحيث أنّهما لا يلقيان أيّ عناية خاصة. فالمرء عادة، لا يطرح أسئلة حول أمور تبدو بديهية للجميع، ولا ينصرف إلى تحليل مثل هذه الأمور". (حنّة أرندت، 1992، ص 10)

إنّ الأمر الذي جعلني أتناول بالدراسة والمناقشة موضوع دور وسائل الإعلام والاتصال في تغذية العنف والعنف المضاد عند الطفل، من خلال التركيز على تشخيص الوضع وأسبابه وتأثيراته لأهمية ذلك، على حدّ تعبير الفيلسوف الجزائري عبد الله شريط الذي يقول: "نعتقد أنّ تشخيص المرض أهم من البحث عن الدواء بالنسبة إلينا، لأنّ خطر أمراضنا في مرحلتنا الراهنة هو أنّنا نعيشها ولكننا لا نشعر بها" (عبد الله شريط، 1981، ص 6)، هذا بعد طرحي للساؤلات التالية: كيف تغذي وسائل الإعلام والاتصال العنف عند الطفل ؟ وكيف تحوّلّه إلى طفل عنيف ؟ كيف يولّد العنف المضاد ؟ ثم ما المقصود بالعنف المضاد ؟ وكيف يؤثر على الطفل ؟

1. دور وسائل الإعلام والاتصال في تغذية العنف عند الطفل.

1. تعريف العنف:

بالرغم من أنّ مصطلح "العنف" لا يعدّ من ضمن المصطلحات الصعبة التعريف، إلّا أنّه - كما سبق وذكرت - لم يحظ بعناية كبيرة كغيره من المصطلحات والتي تندرج في الحقل الدلالي ذاته، من مثل "السلطة"، "القوة"، "القدرة"، "التسلّط"، ما جعله يبدو من المصطلحات البديهية والمتداولة بشكل عادي، وبالتالي عدم التطرّق له كمفهوم يتضمّن إشكالية جد هامة ولها تأثير خطير

على حياة الإنسان عموما وحياة الطفل الناشئ على وجه الخصوص، والذي يولد صفحة بيضاء على حدّ تعبير المفكر جون لوك، ولهذا السبب سأشرع بالوقوف على تعريفه أولا، ومن ثمّ على كيفية تغذية الطفل به وخاصة من طرف وسائل الإعلام والاتصال.

• التعريف اللغوي:

العنف: أو " la violence " كلمة تنحدر من الكلمة اللاتينية " violenta " والذي تعرّفه طبعة (2001) من قاموس (le petit la rousse - p.1068) بأنّه: " السمات الوحشية، إضافة إلى القوة، كما تعني الإغتصاب واللاعقل والتدخل في حريات الآخرين. " (مزوز بركو، 2010، ص 4) وفي اللغة العربية تعني كلمة عنف: " الخرق بالأمر وقلة الرفق به ومنه التعنوف، ويعني: " التعبير واللوم والتوبيخ والتفريغ، وهو يعني أيضا اللوم والتوبيخ ويتضمّن أيضا أنواع كثيرة من الأذى والإغتصاب للمرأة والشدة والقسوة. " (ابن منظور، 1994، ص 207)

• التعريف الاصطلاحي:

العنف إصطلاحا يعني: " إظهار غير مراقب للقوة ردّا على إستخدام معتمد للقوة. " (مزوز بركو، 2010، ص 5)

ويعرّفه جون ميلير (Jhon Millir) بتعريف أكثر وضوحا فيقول: " إذا ما أردنا تحديد العنف في كلمة واحدة، أعتقد أنّه يتعيّن تحديدها في ما يلي : إغتصاب الآخر، إغتصاب شخصيته وهويته، ولتحقيق ذلك ليس من الضروري إستخدام سلاح ناري، وتوجيه اللطمات. فالكلام وحده يمكن أن يهين الآخر ويعمل بالتالي على إغتصاب شخصيته. أعتقد أنّ هذا العنف يتناقض مع التوجيه الروحي. إنّهُ تناقض جوهري بالنسبة للتطلّعات الأكثر عمقا التي يصبو إليها الإنسان. " (عزيز لزرقي ومحمد الهلالي، 2009، ص 34)

إذن يمثل العنف إغتصابا وإنتهاكا لحياة الفرد، في حياته بمستوياتها الجسدي والنفسي، وتجاوزا لحرية الإنسانية والمدنية، ما يجعل منه فعلا لإنسانيا وسيّما إذا كان ممارسا ضد أضعف فئة في المجتمع وهي فئة " الطفولة (childhood) ".

هذه الأخيرة التي " تضم الطفولة المبكرة من الولادة إلى سن 3 سنوات، ثم مرحلة ما قبل المدرسة (3 - 6 سنوات) وبعدها مرحلة المدرسة أو الطفولة المتأخّرة (من 6 - 12 سنة) ولكل من هذه المراحل خصائصها المميّزة. " (لطفي الشرنبي، د.س، ص 26)

فكيف يمارس العنف ضدّ الطفل ؟ قبلّا يجب أن نجيب عن السؤالين التاليين: ما علاقة وسائل الإعلام بالعنف ومن ثمّ بتغذيته للطفل ؟ وكيف تحوّل الطفل البريء المسالم إلى طفل عنيف ؟

2. وسائل الإعلام والاتصال وبثها للعنف الرمزي.

إذا قلت أنّ عصرنا اليوم هو عصر التقنية والصورّة والسرعة، حضرت كلها مباشرة في وسائل الإعلام والاتصال بحكم أنّها الخيط الواصل بيننا وبين حياة سهلة ومريحة، ولأنّ هذه الوسائل تمثّل

أداة نشر الأخبار والحقائق والآراء والأفكار بين الناس، لإيجاد درجة عالية من الإدراك والوعي لدى جمهور المتلقين للمادة الإعلامية.

وهذه المادة الإعلامية تتضمن رسالة إعلامية تنشرها وسائل إعلامية إما مطبوعة وإما بصرية وإما سمعية وإما سمعية بصرية، كالصحافة (الصحف والمجلات) والإذاعة والتلفزيون ووسائل النشر الإلكترونية المتنوعة ومنها الإنترنت والحواسيب والهواتف الذكية، ويشترط في كل وسيلة منها أن تناسب المصدر والمتلقي والمضمون الإتصالي، ولهذا تضطلع بست وظائف تتمثل في الآتي :

- (1) "وظيفة إجتماعية تهتم بالمجتمع وما يحيط به من ظواهر وأحداث.
- (2) وظيفة تربوية تتضمن تعلّم مهارات جديدة.
- (3) وظيفة ترويجية تساعد الفرد على الإستمتاع بوقته.
- (4) وظيفة تسويقية.
- (5) وظيفة تتعلق بالخدمات العامة.
- (6) وظيفة إقناعية تهدف إلى تغيير الإتجاهات والسلوك أو تأكيد الإتجاهات وتعزيزها." (أحمد الشويخات، د.س، د. ص)

غير أنّ هذه الوظائف تمثل الجانب الإيجابي فقط ، في حين أنّ الجانب السلبي والمسكوت عنه يوارى العديد من الوظائف وعلى رأسها الوظيفة الإيديولوجية الهادفة إلى السيطرة والهيمنة والتحكّم - بالرغم من أنّ الغاية الحقيقية من وراء هدف السيطرة والتحكّم تظلّ خفية- وهذا من خلال شيء واحد وهو " العنف " الذي لا تعرضه بشكل مباشر بل بشكل مغلف ومرمّز، وهو ما إرتأيت أن أشير إليه في هذا الصدد وأصفه بـ " العنف الرمزي". فما المقصود بالعنف الرمزي ؟

يعرفه بيير بورديو (Pierre Bourdieu) بالقول: "العنف الرمزي عنف هادئ غير محسوس، غير مرئي حتى بالنسبة للضحايا أنفسهم. إنّّه عنف يمارس أساسا بطرق رمزية خالصة في التواصل والمعرفة أو أكثر تحديدا بالجهل والإعتراف، أو بالعاطفة حدّا أدنى." (بيير بورديو، 2009، ص - ص 8 - 9)
وما إستنادي إلى هذا التعريف للعنف الرمزي، إلّا لأنّه يعبر فعلا عن العنف الذي تبثّه وسائل الإعلام والإتصال بأسلوب ذكي وهادئ فيوقع المشاهد في شركه من دون وعي منهم، والأكثر من ذلك أنّها تجمّله في صور راقية وتحيطه بقيم عالية، فتجعل المتلقي أسيرا له ومتابعا وفيّا وشغوبا به، سيّما إذا كان طفلا صغيرا في طور النّمّو والتعليم يتقبّل كل ما يلقن له.

وعليه " فلا أحد ينكر على وسائل الإعلام دورها الفاعل والفعال في المجتمع وخاصة منها التلفزة، وما تنقله يوميا من برامج وأخبار، بحيث يكون للعنف فيها مجالا أوسع، سيّما تلك المشاهد التي تمجّد العنف وتعطيه قيمة عليا وتجعل منه غاية منشودة." (أسامة ظافر كبارة، 2003، ص 27)

ويؤكّد فكرة هيمنة العنف في مختلف وسائل الإعلام والإتصال وعلى رأسها التلفزيون كارل بوبر (Karl Poper) الذي يقول: " التلفزيون ينتج العنف ويقدمه في المنازل بطريقة أخرى لم تكن تعرفه."

(كارل بوبر، 2005، ص 84) وإلى جانب كارل بوبر نجد أيضا جون كوندري (Jhon Kondera) يثبت بأن البرامج المخصصة للأطفال من أفلام ورسوم متحركة وغيرها مشحونة بعنف كبير، مخالف لما تدّعيه في الظاهر تماما، وهو ما ذكره في نصه الآتي: "إنّ محتوى البرامج التليفزيونية يتضمّن عنفا شديدا مقارنة بالحياة اليومية التي تدّعي هذه البرامج أنّها تعكسها. فتحتوي الرسوم المتحركة التي يشاهدها ملايين الأطفال على مشاهد تعتبر الأكثر عنفا في التليفزيون." (جون كوندري، 2005، ص 120)

بمعنى يقدّمه بطريقة مشوّقة وجذّابة تغطّي على بشاعته وخطورته التي تعصف بالبذرة الأولى والمكوّنة للمجتمع، والمتمثّلة في الطفل، من خلال بثّه في كل البرامج المقدّمة فيه فهو "يعرض مواقف عنف وإجرام في أفلامه الروائية والتسجيلية، وفي رسومه المتحركة وأخباره إلى أن قال عنه أحد المعارضين المتشدّدين له "إذا كان السجن بالنسبة إلى المراهقين هو الكلية التي يتعلّمون فيها الجريمة، فإنّ التلفاز هو المدرسة المتوسّطة للانحراف." (هادي نعمان الهيتي، 1988، ص 129)

إضافة إلى الإنترنت والمواقع الإلكترونية ومواقع التواصل الاجتماعي سواء المخصصة للكبار، أو تلك المخصصة للأطفال والمشحونة بعالم كامل من العنف والجريمة، والرسوم المتحركة وألعاب الفيديو التي تحمّل حتى في الحواسيب والهواتف الذكية كلها قائمة على أساس القوة والعنف والقتل والتدمير، فكيف لا تغدّي الطفل البريء وتحوّله إلى طفل عدواني عنيف ؟

3. وسائل الإعلام والاتصال وصناعة الطفل العنيف.

إنّ الدور الخطير والذي أضحى واضحا على الأقل في السنوات الأخيرة من عصرنا، والذي تلعبه وسائل الإعلام والاتصال في تغذية الطفل بكل أنواع العنف، وبثّه في كل برامج الأطفال المقدّمة له من رسوم متحركة وألعاب فيديو وغيرها من البرامج، أكّدته الدراسات والأبحاث التي خصّصت تحديدا للبحث في تأثيرات وسائل الإعلام والاتصال على سلوك وشخصية الطفل، من قبل المتخصصين في علم النفس وعلم الاجتماع والمرتبطة بالطفل، وكيف تصنع بهذه التأثيرات طفلا عنيفا.

حيث " يؤكّد بعض الباحثين والعلماء (المشتغلين في حقل الدراسات الاجتماعية بما يتعلّق بالعدوان، والجنوح عند الأطفال ومما يؤدّي إلى سلوك عنيف) أنّ لوسائل الإعلام (بخاصة البصرية منها مثل التليفزيون والكمبيوتر) لها تأثير على مفاهيم ومعارف الطفل وبالتالي سلوكه وإتجاهاته المستقبلية." (أميمة منير عبد الحميد جادو، 2005، ص 120)

وقد قصدت القول " صناعة الطفل العنيف " إنطلاقا من القياس، قياسنا لماذا ؟ قياسنا لـ " صناعة الثقافة الجماهيرية " (وهو من أبرز المصطلحات والمواضيع المعاصرة والمتناولة بالبحث والدراسة من قبل مدرسة فرانكفورت الألمانية) التي تعمل عليها وتروّج لها وسائل الإعلام والاتصال الحديثة، بحكم أنّ هذه الأخيرة من منطلق كونها تقنية وأداة مبرمجة تسعى بفعل مصنّعيها إلى برمجة وصناعة كل ما تقدّمه من مادة، وكل ما يستقبل هذه المادة الإعلامية من بشروني مقدّمهم الطفل،

لقابلية الطفل لفعل الصناعة في إطار نموّه، وذلك لإعتمادها على مجموعة من الإستراتيجيات كشفتها بعض الدراسات والأبحاث المؤسّسة، والتي تحوّل الطفل البريء المسالم تدريجيا إلى طفل عدواني عنيف، وسأحاول إدراجها في النقاط التالية :

_ التركيز على عالم الخيال عند الطفل وشغفه بالتقليد والتقمّص، من خلال تجميل وتنميق المشاهد والسلوكات العنيفة والإجرامية بأساليب مشوّقة ومبهرة تأسر خيال الطفل وعاطفته البريئة، وما يؤكّد هذا الدراسات التي بحثت في العلاقة المباشرة بين الأفلام والبرامج وبين الانحراف والجريمة، حيث توصّلت إلى " أنّ الأطفال يحاولون التشبّه بالشخصيات التي تقوم بأعمال إجرامية أو عنيفة، وأنّ عالم النعيم الخيالي الذي ترسمه الأفلام لحياة المجرمين الخاصة تدفع الأطفال إلى ممارسة الإجرام، والأساليب التي يتّبعونها في تنفيذ العمليات الإجرامية تشكّل مفاتيح للأطفال لأن يكتسبوا طرقا في التنفيذ، لا يمكن أن تخطر في أذهانهم لو لم تهيأ لهم الفرصة لمشاهدتها." (هادي نعمان الهيتي، 1988، ص 130).

هذا ولا تتم ممارسة الطفل لهذه السلوكات العنيفة والتي يتقمّصها ويحاكي بها شخصيات الأفلام التي يشاهدها، إلا بعد أن يكرّر مشاهدتها للعديد من المرات ، وهذا " إعتقاد يسود عددا غير قليل من علماء النفس وأطباء الأمراض العقلية، حيث يفيد بأنّ تكرار مشاهدة الطفل للمعارك العنيفة التي تستخدم فيها الأيدي والأسلحة النارية أو السكاكين لا يمكن أن تكون عديمة الأثر، بل العكس من ذلك تنمّي في الطفل بعض المشاعر العدوانية، وقد تعلّمه ممارسة بعض أنماط السلوك العدواني فعليا"، (أميمة منير عبد الحميد جادو، 2005، ص 120) وتكرار المشاهد لا ينمّ إلا عن الإدمان الذي يصاب به الطفل من الوقت الطويل الذي يقضيه في المشاهدة.

_الإشتغال على عامل الوقت عند الطفل وسحبه تدريجيا إلى عالم الإدمان، من خلال الإطالة من عمر البرامج والأفلام سواء الكرتونية أو غيرها، وهو ما يؤكّده بوبر الذي يقول: " في أيّامنا قد غيّر العنف مكانه وإستولى على شاشات التليفزيون، حيث يفكّر الأطفال في العنف يوما بعد يوم خلال عدة ساعات." (كارل بوبر: 2005، ص 84)

وهذا الوقت الذي يحصر بين القصير والطويل عند الطفل المشاهد لهذه البرامج والأفلام المشحونة بالعنف، هو الفاصل بين الطفل العنيف في سلوكاته وبين غير العنيف حيث " تفيد حصيلة بعض الإختبارات النفسية التي تجري على الأطفال لإختبار شخصياتهم أنّ الطفل الذي يقضي وقتا طويلا في مشاهدة برامج العنف التليفزيوني يكشف بالإختبار ميولا عدوانية بنسبة أكبر من سواه ممّن لا يشاهدون مثل هذه المشاهد." (أميمة منير عبد الحميد جادو، 2005، ص 120)

وتختلف شدّة ودرجة ممارسة الطفل للسلوكات العنيفة بإختلاف البرامج التي يشاهدها من وسيلة إعلام وإتصال إلى أخرى، حيث أكّدت دراسة في هذا الصدد بـ " أنّ العنف في الألعاب التفاعلية (ألعاب الكمبيوتر) أكثر ضررا من العنف الذي يعرضه التليفزيون، فقد وجد العلماء أنّ السلوك

العدواني والأفكار العدائية الطبع وسرعة الإنفعال تتزايد بشدة لدى البنين والبنات في أعقاب لعبهم ألعاب عنيفة، وأنّ مشاهدة ألعاب الفيديو الشريرة لفترة طويلة من الوقت يدمر الإنجازات العلمية التي يحققها الأطفال." (أميمة منير عبد الحميد جادو، 2005، ص 132)

_ إستغلال فترة النمو والتطور عند الطفل وبالتالي قابليته للتعلّم السريع، وعليه فبدلاً من المساهمة إلى جانب الأسرة والمدرسة بلعب دور فعال ومفيد في تربيته وتعليمه، خاصة بعد ذكرى أنّه من أهم وظائف وسائل الإعلام والاتصال الوظيفة التربوية الهادفة إلى إكساب مهارات جديدة للمشاهد، تقوم بمنحه التعليم الخاطئ والمضّر بشخصيته حاضراً ومستقبلاً.

حيث " تشير الأبحاث بأنّ الطفل لا يتعلّم فقط سلوكاً جديداً من وسائل الإعلام، ولكن السلوك العدواني له قابلية وإحتمال كبير لكي يكتسب ويجري تعلّمه من قبل هذه الوسائل، وهذا كما يظهر، صحيح لأنّ تصوير وإبراز العدوان، يحقق كثيراً من الأجواء التي تدعم التعلّم المرضي Incidental Learning." (أسامة ظافر كباره، 2003، ص - ص 268 - 269)

هذا التعليم المرضي والخاطئ الذي تتعمّد وسائل الإعلام والاتصال تغذية الطفل به، كيف تمارسه عليه ؟ من خلال تقديمه له للأفكار الخاطئة من قبيل أنّ القوة هي كل شيء في حياة الإنسان وبواسطتها يحقق كل أهدافه وطموحاته، وأنّ خير الإنسان ذاك القوي الذي يملك السلطة، وأنّه لا وجود إلّا لعالم تسوده القوة والأقوياء ولا مكان فيه للضعف والضعفاء، وفي حقيقة الأمر لما كان العنف لديهم يمرّر بأساليب رمزية فإستعمالهم لمصطلح " القوة " أو " السلطة " ما هو إلّا تغطية للمصطلح الحقيقي والمتمثّل في " العنف ".

ومن هذا المنطلق " فإنّ الأطفال يستنتجوا على طريقتهم أنّ " الأكثر قوة هو الذي يملك الحق"، وبالمقابل فلهذه صعوبة في فهم ما هو دقيق من الرسائل، وأنّ بعض الأفعال تبرز بشكل أكبر عن أفعال أخرى. وعلى العكس فهم يفهمون بدون صعوبة أنّ المرء يحصل عمّا يريده عندما يملك السلطة. وهذه الرسالة مازالت تطبع بشدة الرسوم المتحركة " من أفعال ومغامرات " حلّت محلّ المشاهدة المباشرة التي كانت قد صوّرت لعصر معيّن لبرامج الأطفال." جون كوندري، 2005، ص 99

وإضافة إلى هذا الإستقبال من طرف الأطفال لهذه الرسالة الإعلامية وفهمها لهم بهذه الطريقة، فإنّ تطبيقها وممارستها على أرض الواقع من قبلهم سريع جداً، من منطلق أنّهم في مرحلة النمو والقابلية السريعة للتعلّم، يقول جون كوندري: " ينفعل الأطفال بما يشاهدونه عندما يتصرّفون - هم أنفسهم - بطريقة أكثر وحشية، وينتهون إلى الوصول لإفتقاد الحساسية أمام ما يتعلّق بالعنف، متبنّين في ذلك المعتقدات والقيم التي يقدّمها لهم التلفزيون، ويعتقدون في ما يعلم لهم، على سبيل المثال من أنّنا نعيش في عالم " حقير وخطر" حيث يعتبر العنف فيه هو العملة الرائجة والشيء الجدير بالإعجاب." (جون كوندري، 2005، ص 120)

II. ممارسة العنف المضاد ضد الطفل.

1. ما المقصود بالعنف المضاد ؟

إنّهُ وباللغة الفيزيائية لكل فعل ردة فعل، وبالتالي فالفعل العنيف لا يقابل إلا بفعل أعنف منه، بمعنى أنّ العنف لا يُولد إلاّ العنف أو كما إرتأيت أن نسمّيه " العنف المضاد " فماذا نقصد بالعنف المضاد ؟ وما علاقته بالطفل ؟ ولماذا يمارس ضده ؟ وكيف يؤثر عليه ؟

إنّنا نقصد بالعنف المضاد في هذا الصدد والموضع " العقاب " كشكل آخر من أشكال العنف، لأنّ الحديث عن ظاهرة العنف يستوجب بالضرورة الوقوف على ظاهرة العقاب، بإعتبار هذا الأخير شكل ثاني من أشكال العنف بل وأشدّ وأخطر وخاصة عندما يكون موجّهاً ضدّ الطفل.

إذ يعرف العقاب بأنّه : " الإرشاد، الإنذار، التهديد، الإحتجاج، الإرهاق، القصاص بالتعنيف. كما يعني أيضا الجزاء المعنوي والمادي الذي يناله أو يستحقه الفرد في مقابل القيام بفعل ما." (أسامة ظافر كباره، 2003، ص 40)

وتعريض الطفل إلى العقاب وممارسة العنف ضده بمختلف أشكاله المعنوية والمادية، يؤثّر على سلوكاته وشخصيته، لأنّ هناك فرقا بين عقاب موجّه ومقنّن غرضه التربية الصحيحة، وبين عقاب مشدّد لاعتقالي ولا غاية إيجابية من ورائه سوى الهدم والعقاب لمجرّد العقاب، وحتى العقاب وإن كان موجّها لا يكون إلاّ بعد خطوة النصّح والتعليم بإعتبارها أساس التربية السليمة.

2. علاقة عنف وسائل الإعلام والاتصال بالعنف المضاد ضد الطفل.

ما علاقة العنف والعنف المضاد الذي تمارسه وسائل الإعلام ضد الطفل ؟ أجل هناك علاقة وعلاقة وطيدة جدا، إذ أنّ وسائل الإعلام والاتصال لا تقوم بدور واحد وهو تغذية الطفل وشحنه بالعنف وتحويله إلى طفل عدواني وعنيف وفقط، بل تقوم بدور مزدوج فبالإضافة إلى الأوّل تعمل على جعل الطفل عرضة للعنف المضاد بمعنى أوضح عرضة إلى التعنيف والعقاب، كيف ذلك ؟

إنّهُ في الوقت الذي كان الطفل يشحن بالسلوك العدواني والعنيف من قبل وسائل الإعلام والاتصال، كانت الأسرة وبالتحديد الآباء لا يعيرون الأمر إهتماما طنا منهم بأنّهُ لا يؤثّر على أطفالهم، إلاّ أنّ الإعتقاد بالقول بأنّ " العنف على شاشة التليفزيون سيجعل من الأطفال الأسوياء أحداثا جانحين فكرة يتردّد الإدراك السليم أمامها. والواقع أنّ اليقين الحدسي لدى الآباء بأنّ مشاهدة برامج العنف في التليفزيون لن تحوّل أطفالهم إلى مغتصبين وقتلة، هو ما يسمح لهم بالتساهل إزاء إنغماس أطفالهم في برامجهم الأثيرة العنيفة بإستمرار، على الرغم من النصائح الحادة التي يسديها علماء النفس والمربّون." (ماري وين، 1999، ص - ص 112 - 113)

وعدم إهتمام الآباء بأطفالهم وإنقاذهم من الوقوع فريسة للعنف المقدّم لهم من طرف وسائل الإعلام والاتصال، يساهم هو الآخر بتحريض منها في ممارسة العنف ضدّ أطفالهم، بحيث أنّه لما يصبح الطفل عنيفا وكل سلوكاته عدوانية سواء مع إخوته بالبيت أو مع زملائه بالمدرسة أو مع أصدقائه في أماكن اللّعب، يتعرّض إلى العقاب من قبل والديه وتختلف درجات العقاب والتعنيف بإختلاف

السلوكات العنيفة التي قام بها، وبحسب الذهنية الفكرية والنفسية لوالديه ولمحيطه الذي يعيش فيه، وهنا تكون أساليب العنف الممارسة ضده متنوعة معنوية كالسب والشتيم والتهكم والسخرية والإستفزاز....، ومادية كالضرب وحتى التشويه والحبس بالغرفة أو بمكان مخيف كالقبو مثلاً،...هذا بالإضافة إلى ممارسة العنف المضاد ضده من قبل المجتمع والقانون خاصة إذا قام بجنحة إستحق عليها بحسب القانون الدخول إلى مؤسسات إعادة التربية.

أليس هذا تأكيداً على أنّ العنف لا يولد إلاّ العنف ؟ كما تقول حنة أرندت: " ربما كان العنف والعنف-المضاد متلازمين، لكنهما إحتياجان متلازمان كذلك. وكل محاولة لمحو هذا العامل اللإنساني، تكون نتيجته بالضرورة أنّي حين أحطّم لدى الخصم لإنسانية شبه الإنسان فيه، سأكون في الوقت نفسه قد حطّمت إنسانية الإنسان فيه، وماهيت لإنسانيته في ذاتي. فأن أقتله، أن أعذّبه، أن أستعبده. معناه أنّ هديني إنّما هو إلغاء حرّيته." (حنة أرندت، 1992، ص 93)

والمقصود من هذا النص يتجلّى في أنّ تغذية الطفل بالعنف إنّما هو إغتصاب لمساحات البراءة والسلم فيه، وإنتهاك لإنسانيته، وسلب لحرّيته وحقّه في إختيار حياته الخاصة وتربية سليمة تمكّنه من أن يكون فاعلاً في المستقبل، وبعد التمكن من تحويله إلى طفل عدواني وعنيف ذو سلوكات عنيفة، والقيام بمحاولة أخرى لردعه عن هذه السلوكات بالعقاب وبالتعنيف المضاد ما هي إلاّ تأكيد على تجريده من كل حرّيته وإنسانيته المتبقية بالكامل.

3. تأثيرات ممارسة العنف المضاد ضد الطفل.

إنّ لظاهرة العنف والعقاب آثار وخيمة وخطيرة على شخصية الطفل، وعلى حياته الحاضرة والمستقبلية، ومن بين أبرز هذه التأثيرات التي يسببها العنف والعقاب نذكر:

- (1) عرقلة البناء النفسي للطفل فيجعل منه طفلاً خجولاً متشككاً، لا يثق في نفسه ذا ميول كبير إلى الإنطواء وبالتالي عدم تقبّل الآخر.
- (2) العقاب سواء كان جسدياً أو نفسياً غالباً ما يكون مصحوباً بتمظهرات نفسجسدية أو نفسو-وجدانية شبه ثابتة، من مثل معاودة التبول الليلي والآلام البطنية، وإضطرابات النوم وتأخر النمو وإضطرابات السلوك.
- (3) تأخر في الطول والوزن وفي حالة الإصابة بعاهة حصول تهديد نمو جسدي، وعدم تطوّر اللّغة وتهديد التّمو النفسي.
- (4) الطفل الذي ينال العقاب في طفولته يلجأ إلى التخريب وحب الإنتقام والتمرد على مختلف أنواع السلطات وفي مقدمتها سلطة الوالدين. (أسامة ظافر كبارة، 2003، ص 46-47-48)
- (5) كشف دراسة حديثة عن أنّ العنف الجسدي الذي قد يتعرض له بعض الأطفال يعرضهم للوقوع فريسة لمرض الإكتئاب في مرحلة الشباب، ممّا يشكّل نقطة تحوّل هامّة في تتبّع أسباب الإصابة بالإكتئاب التي تعود إلى الطفولة، وتشير الإحصائيات إلى أنّ الأطفال الذين يتعرضون للعنف الجسدي

تتضاعف لديهم بنسبة (تسعة وخمسين بالمائة) احتمالات الإصابة بنوبات إكتئاب، وذلك بالمقارنة بالأطفال الذين لا يتعرضون لمثل هذا العنف في مرحلة الطفولة. (طارق علي أبو السعود، د.س، د.ص خاتمة:

أخلص في ختام هذه الورقة البحثية إلى أنّ طفلنا المعاصر ضحية لظاهرة العنف التي ساهمت ولا تزال تساهم فيها إضافة إلى التربية الخاطئة للآباء وتصرفاتهم اللاعقلانية واللامدروسة، وسائل الإعلام والإتصال بمختلف أنواعها، وبقدر ما هو ضحية بقدر ما سيكون الجاني في المجتمع إذا إستمر وضع العصر الراهن على ما هو عليه، وسيتحوّل الطفل الذي يمثّل البذرة الأولى التي يتكوّن منها المجتمع من عنصر فعّال لبنائه تحت التربية والتعليم السليم إلى عنصر مدمّر له من خلال برمجته على العنف وممارسته ضدّه في الوقت ذاته.

أمّا إذا تساءل القارئ عن السبب الكامن من وراء عدم طرحنا للحلول المقترحة والكفيلة للحدّ من هذه الظاهرة، وإنقاذ الطفل من هذه الجرائم اللاإنسانية المرتكبة ضد حقّه الإنساني في الحياة، فسأجيب بالقول: إنّ الحلول الحقيقية والناجعة والمثمرة بالفعل تشرع من الوعي الكامل والمتنوّر بحقيقة المشكلة والإعتراف بخطورتها وأهمية البحث في أسبابها ومسبباتها أولاً، وأمّا السعي والركض خلف الحلول السريعة والإرتجالية غير المدروسة لمشكلة لا تزال تقدّم بطرح متشكّك فيه، من خلال وجود إتجاهين أحدهما مؤيّد له والآخر معارض له، فهذا دليل كاف على عدم تبني ظاهرة " الطفولة المعنّفة " كقضية غاية في الأهمية وتستلزم الإيمان بوجودها، وعليه فإنّ هذا السبب مقنع على الأقل في نظري لعدم التسرّع والبحث عن الحلول الجاهزة.

وعليه فما نحتاجه للنظر في هذه الظاهرة الخطيرة " الطفولة المعنّفة " والتي تزداد وتيرة تسارعها كل يوم وكل ساعة، هو الإعتراف بوجوده وبإسهامنا في ظهورها وتطوّرها، ومن ثمّ طرح تساؤلات من قبيل: هل العنف ظاهرة طبيعية وسلوك فطري وجزء من الإنسان ؟ وإن كان سلوكا فطريا كامنا على الأقل فما الداعي لإستفرازه وإيقاظه عند الطفل ؟ ثم بأيّ حق نمارس العنف ضد طفل لا يملك القدرة على التحمّل لا نفسيا ولا جسديا ؟ ما الفائدة من ممارسة العنف ضد الطفل ؟ ما الغاية الخفية من وراء شحن وتغذية وسائل الإعلام والاتصال الطفل بالعنف في مرحلة براءة وسلم يحياها في حياته ؟ إلى متى سيظلّ الطفل العنيف والمعنّف في الوقت ذاته ظاهرة مطروحة للمناقشة من دون وعي سوى وعي البحث النهم عن الحلول بعد تقديم الإحصاءات السنوية حول عدد الأطفال المعنّفين ؟

قائمة المراجع:

- (1) أسامة ظافر كباره : برامج التليفزيون والتنشئة التربوية والاجتماعية للأطفال، دار النهضة العربية، لبنان، ط1، 2003.

- (2) أميمة عبد منير عبد الحميد جادو: العنف المدرسي بين الأسرة والمدرسة والإعلام، دار السحاب، مصر، ط1، 2005.
 - (3) بدير بورديو: الهيمنة الذكورية، ترجمة: سلمان قعفراني، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط1، 2009.
 - (4) هادي نعمان الهيتي: ثقافة الأطفال، عالم المعرفة، بيروت، د.ط، 1988.
 - (5) حنة أرندت: في العنف، ترجمة: إبراهيم العريس، دار الساق، لبنان، ط1، 1992.
 - (6) طارق علي أبو السعود: وسائل مواجهة العنف ضد الطفل، المركز الإعلامي الأمني، د.د، د.ب، د.ط، د.س.
 - (7) ماري وين: الأطفال والإدمان التلفزيوني، ترجمة: عبد الفتاح الصبحي، عالم المعرفة، د.ط، 1999.
 - (8) مجموعة مؤلفين: التلفزيون: خطر على الديمقراطية (مقالات مختارة)، ترجمة: مجدي عبد الحافظ، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2005.
 - (9) مزوز بركو: العنف عند الأطفال وأشكال العقاب الممارس على الطفل العنيف، المكتبة العصرية، القاهرة، ط1، 2010.
 - (10) (عبد الله شريط: من واقع الثقافة الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.
 - (11) (عزيز لزرقي ومحمد الهلالي: العنف، دار توبقال، المغرب، ط1، 2009.
- قائمة المعاجم والموسوعات:
- (1) أحمد الشويحات: الموسوعة العربية العالمية، www.intaaj.net
 - (2) لطفي الشرنوبي: معجم مصطلحات الطب النفسي، مركز تعريب العلوم الصحية ومؤسسة الكويت للتقدم العلمي، د.ب، د.ط، د.س.